المحاضرة الثالثة:نظريات الإيقاع02

(تابع للمحاضرة الثانية)

إن هذه النظرية الخليلية الكمية وجه لها الكثير من الانتقادات من قبل بعض النقاد القدامى، كالجوهري وحازم القرطاجني، وازداد هذا النقد حدة عندما غير المستشرقون النظرة التقليدية لعلم العروض، وذلك لاطلاعهم على الأنظمة العروضية الأخرى مثل اليونانية واللاتنية، فأوردوا الشكوك في على رأي العروضيين القدامى، وعلى رأسهم المستشرق الألماني الشهير **هِنري إيوالد،(Heinrich Ewald)** الذي أسسفرضية جديدة على غرار العروض اليوناني الذي يبنى على أساس المقاطع وأنواعها، مما جعله يدخل عنصرا آخر على إيقاع الشعر العربي هو النبر" دون أن يستطيع أن يحدد مواقعه في الشعر حسب رأي المستشرق **قول قايل Weil** وتبعه في ذلك الكثير من المستشرقين كـ"**ستانِسلاس جويار Stanislaw Guards** و**مارتن هارتَمان Hartmann**وغيرهم.

ثانيا/نظرية الإيقاع القائمة على أساس النبر:

يقصد بالنبر تلك الشدة التي تضفى على مقطع من مقاطع الكلمة نتيجة جهد خاص يُبذل عند نطق هذا المقطع، فيؤدي إلى وضوح نسبي فيه، وهو نظام لم يعرفه النقد العربي القديم، وإنما كان كميا دون استثناء، بل عرفه النقد الحديث والمعاصر، بفعل المثاقفة الغربية، لكن هناك من الدارسين من تعلق به أشد التعلق، ورأي فيه الحل النهائي لمسائل الإيقاع بفعل رفض بعض الدارسين للعروض الخليلي الذي لم يحسم مسألة الإيقاع نهائيا.

وأول الدارسين الذين قالوا بوجود نظام نبري في الشعر العربي يمكن أن يغني عن نظام الخليل كان الباحث محمد مندور في كتابه "الميزان الجديد، الذي رأى أن "الكم لا يكفي لإدراك موسيقى الشعر، بل لا بد من الارتكاز الشعري الذي يقع على كل تفعيل، ويعود في نفس الموضع على التفعيل التالي وهكذا".

ونجده يذهب إلى أبعد من ذلك، بحيث راح يحاول تحديد مواضع النبر في الشعر العربي، قائلا أن:" هناك ارتكاز على المقطع الثاني من التفعيل القصير "فعولن"، وأما التفعيل الكبير فيقع عليه ارتكازان أحدهما أساسي على المقطع الثاني والآخر ثانوي على المقطع الأخير في مفاعيلن"؛ أي أن هنالك دائما ارتكازا ابتدائيا يقع في أول تفعيلة الطويل مثلا-على المقطع الثاني (عو).

كما يعد كمال أبو ديب من أكثر المتحمسين لنظام النبر في الشعر العربي، حيث أعلن ثورة شاملة على نظام الخليل الكمي من خلال كتابه(في البنية الإيقاعية للشعر العربي-نحو بديل جذري لعروض الخليل)، ويظهر من خلال هذا العنوان السعي إلى إحلال نظام بديل

بصورة جذرية لنظام الخليل الكمي، وهذا النظام هو لأساس النبري، بحيث يرى أن ما يمنح الكتلة الوزنية (التفعيلة) طبيعتها الإيقاعية ليس هو الوزن، وإنما النبر ،"الذي يضعه الشاعر على أجزاء معينة من الكتلة الوزنية، والنبر يكون نوعين، نوعا قويا ونوعا خفيفا"، ثم يقدم الباحث قانونه النبري المقترح المبني على جملة من القواعد المحكومة بقانون ثابت تخضع له الكلمات اللغوية والوحدات الإيقاعية.

ومن بين هذه القواعد: أن الكلمة إذا انتهت بالنواة/0 (المقطع الشعري)، أي السبب الخفيف في علم الخليل أو بالنواة //0 أي الوتد المجموع فإن النبر يكون على الجزء الذي يسبقها مباشرة، مثل لفظة أسير://0/0 فإن النبر يقع على الياء لأنها الجزء الذي يسبق النواة(/0).

وفي لفظة مثل شاعرٌ يقع النبر على الألف الممدودة.

ومن النقاد الذين قالوا بالأساس النبري أيضا محمد النويهي في كتابه" قضية الشعر الجديد"، الذي يرى أن النبر نظام مطرد في اللغة العربية وأن له أثرا واضحا في الشعر العربي على الرغم من أساسه الكمي،وأخذ هذا القانون من الشعر الإنجليزي الذي يقوم على النبر، محاولا إسقاطه على الشعر العربي، كما أشاد الباحث باهتمام الباحثين بنظام النبر واعتماده عنصرا فعالا في فعل القراءة الموسيقية للقصائد، والدليل على ذلك ولوع الشعراء المعاصرين بالنظم على بحر المتدارك(الخبب)، باعتباره من أكثر البحور الشعرية ارتباطا بنظام النبر.

ونجد في المقابل أن هناك من لم يعترف بفاعلية النبر في إيقاع الشعر العربي، وأن هذا الشعر لا غنى له عن نظام الكم، وهذا ما أفرز عند بعض النقاد والعلماء موقفا معارضا لنظام النبر كعز الدين إسماعيل، وشكري محمد عياد وغيرهم، وقد استندوا في ذلك إلى حجتين اثنتين:

أولهما/أن النبر ليس جوهريا في اللغة العربية إذ تغييره لا يغير في معنى الكلمة.

ثانيهما/أنه لا يخضع لقاعدة علمية تضبط مواضعه، فهو يختلف باختلاف اللهجات وكيفية آدائها.

ولعل السبب الذي قلل من قيمة النبر في إيقاع الشعر العربي ولغته هو الاختلافات الكبيرة بين علماء اللغة المحدثين (علماء الأصوات)، والنقاد في تحديد مواضعه، فهم لم يتفقوا إلا في تحديد موضع واحد هو " إذا انتهت الكلمة بمقطع زائد الطول اتفق الباحثون على أن يكون هو موضع النبر كما في لفظة" نستعين.

وتجب الإشارة ههنا، إلى أن شكري عياد كان متذبذبا في آرائه فأحيانا نجده يقر بالأساس الكمي للشعر العربي، في حين نجده في مواضع أخرى " يتكهن أن يكون مستقبل الشعر العربي مبنيا على الأساس النبري وهذا ما يؤكده قوله:"إن النبر لا الكم هو قاعدة شعر المستقبل، إن أريد للشعر العربي تطور حقيقي".

ليصل في الأخير إلى الجمع بين الرأيين (الكم والنبر)، وهذا ما يؤكده قوله:" إن الإيقاع ضربان: أولهما متكون من أجزاء متساوية الأزمنة ويسمى موصلا، وهو ما يسمى بالوزن(الكمي)، والآخر يتكون من أجزاء متفاضلة الأزمنة وتسمى مفصلا وهو ما يسمى بالوزن (الكيفي) إن جاز التعبير، فالأول خاضع للتكرار والتعاقب في نظام ثابت، في حين أن الثاني مختلف من حيث الكم والكيف، فمتى ما انضبط الإيقاع في نسب محددة متساوية متكررة كان وزنا أما إذا اختلف في نسب بقي إيقاعا كيفيا".

أما إبراهيم أنيس فرفض الرأي القائل بأن يكون للنبر دورا في النظام الوزني الإيقاعي، بحيث نجده يركز على در التنغيم والإنشاد في الشعر العربي، وفاعليته في تحقيق موسيقاه، معتبرا أن النبر شيء عرضي فيه.